الصيّاد والمرأة وحيوانات الغابة الثلاثة

The hunter, the women and the three beasts

ترجمه: أ.د. عبد الحميد بورايو

الرّقم التعريفي للمقال: DOI: 10.33705/1111-000.009.002

كان هناك رجل اختار أن يعيش وسط الغابات، في كوخ، مع أخته التي كان يحبّها كثيرا. كانا يتيمين؛ بسبب فقدان والديهما والمجاعة، أصبحا لاجئين لم يرضيا أن يظلاّ يتسولان على قارعة الطريق أو في التجمّعات السكانيّة؛ وكانت الأشجار تجذبهما منذ طفولتهما النضرة، مثلما تجذب الطيور التي تُقبل عليها من بعيد. كانا قد ولدا في السُهُوبِ العليا، ترتادُها الرياح، قاحلة وجدباء. يعلمان أنّ الأشجار لا تنمو سوى وهي مجتمعة، وحدها اَلْجَنْبَاتُ وأدغالُ الْعِلّيق، تنبت هنا وهناك في شِعَابِ الوديان، غير أن الأشجار، الأشجار الكبيرة، أشجار الفلّين والتي تثمر البلّوط، لا تحيا منعزلة. ويروي الصيادون أنّ ظلالها الوارفة، المنسجمة، تلفّ الإنسان مثل غشاوة ليل تظهر في عزّ النهار، تخفي الشمس دون أن تحجب السماء، فَتُطِلُّ علينا عبر ومضاتها الزرقاء ونجومها الخافقة. كان الطفلان يمسكان بيديهما ببعضهما لمّا بلغا الغابة، كَبُرَا فيها، كانا يتغذّيان من البلوط والنباتات، تحميهما الغابة بأجنحتها، تجعلهما يتيهان في شعابها، تمسح خدودهما بأوراقها المزغّبة، تطرح عند أقدامهما ألف وردة حمراء والدعسوقات وأعشاشا مليئة بالبيض. أصاب النحولُ الطفلين، وهما يتعرضان للشمس الحارقة، ويطآن أرضا يابسة، تخشخش تحت أقدامهما، فيمتصهما الظلّ، فتشفي غليلهما بِالْخُضْرَة. كانا يناديان على العصافير ذات الأصوات السماويّة. كَبُرَ الطفلان وأصبحا رجلا وامرأة –أخا وأختا-بين الأشجار، بين الحيوانات.

كان يذهبُ للصيد، ممتلئا حيويّة، خطاه خفيفة، بيده القوس والسهم، عينُه يقظة، وتقبض كَفُّهُ على أداة الموت، تُعْلِنُ عُرْفَ الرجل. ثمّ إنّه كان له إخوة من بين طرائده، عثر عليها بالصدفة وهو يسعى، حيوانات صغيرة، مقرورة من الخوف، تكشف عن أنيابها، تَصْدُرُ عنها أصوات ضعيفة وهي تجثو عند جثث أمهاتها. رغم أنها من حيوانات الغابة، فهي مازالت صغيرة، مُنْتَفِشَةُ الزغب، تميل إلى البشاعة: ذئب وخنزير وأسد. عَلَّمَهَا الصياد لغة البشر وكان يدعوها بإخوته، كَبُرَتْ معه. ولأنه علّمها لعب أَرُومَتِهِاعتبرتْه أخًا لها، وكانت تقول له: أخينا. كانت هناك صداقة غريبة تجمع بين الرجل والحيوانات عبر لحظات صمت، وآفاقٍ مُتَقَاسَمةٍ، وكانت أصواتها متمايزة عند الطراد. كان لا يرغب في أن تفقد الحيواناتُ الثلاثة كرامتَها، ما تثيره أصواتُها من رعب، ومن ازدراء للإنسان لمّا يكون غير صديق لها. وجميع هذه الحيوانات: الأسد والذئب والخنزير كانت تعيش في محيطها، في الغابة القديمة، مع سيّد لها أحبّته وكأنه من صنوها لا يتميّز عنها.

في هذه الأثناء كَبُرَتْ الأخت لتصبح امرأة مكتملة، كعنفوان جارف، تفجّر شبابُها على مرّ الفصول وفي الصيف على الخصوص، لما يقطر الصمغ المنبثق من الأشجار الجافّة. في سنّ المراهقة كانت

تقارن أعضاءها النضرة بأغصان الربيع، وكان جسدها المتمرّد يحتكّ بلحاء الشجر، يتدحرج على الكلأ الجافّ، دافنةً رغباتِها في المستنقعات. كان الكوخ يعبق برائحة القنص اللاذعة والدم الفائر؛ حيوانات جلودها متغضّنة معبّأة بنداءات الاستغاثة لمّا كانت يد الفتاة المرتعشة تلمسها. فجأة أحسّت بالوحدة تنهشها. توقّفت الغابة عن إرسال غنائها إلى آذانها التي كانت تسترق السمع؛ لم تعد ترى النبت ينمو، ولا الورود تنفتح، ولا العصافير تُغرّد على الأغصان، وهي التي كانت ثرثارة مثلها، وأصبحت منذ اليوم لا تُغَرِّد. بدأت تَعُدُّ الأشجار التي بدت لها مثل قضبان سجنٍ. هناك منها الكثير والكثير، وجعلها ضجرُها لا ترى منها سوى سِيقَانَهَا. لم تكن لتجرأ على رفع عينيها نحو الأغصان العالية التي كانت تغار منها. تلمسها الريح برفق، فتتمايل من الرضا، ويحتكّ بعضُها ببعض. وهي امرأة ناضجة، كان جسدها الناضج يؤلمها، وتغزو الحلاوة الآسرة جميع أجزائه بالكامل، دون أن تجد مُتَنَفَّسًا. كان أخوها مشغولا بأعماله الرجاليّة، بِشِرَاكِهِ التي ينصبُها، لا يمكنه أن يلحظ هذا الحزن الوليد. كانت تنتظر عودته بفارغ صبر تحتفل به كلما عاد مع الحيوانات الثلاثة، أصدقائه، جَارِّينَ خلفهم، عنزات غارقة في الدم والروث، ذات عيون ذابلة، وأيائل شُقْر، قرونُها متشابكة. نسور نصف ميّتة. من بينها على الدوام ضَبُعٌ تشمّ رائحة الجثث الأخرى، فهي غريبة عن الغابة، قدمت غازية. كان يأتي لأخته بسلاحف حيّة، عصافير تجرّ خلفها ريشها، تبحث عما تلتقطه في كلّ زاوية من زوايا الكوخ، أرانب وَجِلَة يكسو البياضُ بطونَها. غير أنّ جميع هذه الحيوانات وهي تَعْبُرُ العتبة، تكون قد فقدت أصواتَها، تَسْكُنُ فجأةً بعيون ثابتة، متشمّمة بخياشيمها هذا الهواء العطن مثل عفونة مجزرة.

كلّما حضر أخوها، تظهر الفتاة ممتلئة حبورًا، عاطفيّة يغزوها الإحساس بالحضور البشريّ. بعد فترة من الزمن، تحوّلت عزلة الغابة القاتلة، وما يأتي به النهار من أحزان والمشاعر المؤلمة إلى إحساس بالسكينة عذب، إنه حبّها لأخيها، حنينها إلى أيام الطفولة. لكنه كان يغادر الكوخ عند الفجر، حين يبزغ ضوء النهار في العشّة، وتتساقط الأغصان العالية، لمّا يسطع النور والشمس. لم تعد تُنْصِتُ منذ ئذ سوى للصراصير. كان حسّ جسدها بدمها الفائر في الصيف وتقاطر الصمغ من لحى الشجر الجافّ يبعث فيها الْخَدَر.

ذات يوم، سمعت صوتا قريبا، لعلّه حفيف، تنهيدة، صوت بشري لغير أخيها. دارت حول نفسها كانت خطاها المرتعشة تلعب فوق العشب، تختال بدافع الرغبة؛ اصطدمت بالشجر، مزّقت فستانها نادت قالت لمن كان يسير نحوها:

– من أنت؟ هل أنت من هذا العالم أم من العالم الآخر؟ يا من تشبه الإنسان، وتبدو لي عيونك مجهولة، وهذه الهيئة وهذا القدّ...

قال لها:

– لستُ من العالم الآخر، لكني موجود الآن، لستُ من الإنس ولا من الجنّ. يدعونني الغول ولد الغول؛ لكن اطمئنّي فلن آكلك. إنّه العطش الذي ألجأني لهذه الغابة وهاهو ريقي يجفّ في حلقي من جديد. لقد أفرغتُ مُسْتَنْقَعًا، هناك، وكان للماء مذاق اللحم، مذاق عذراء، له عطر الْعَنْبَر والْعَرَق. طلبتْ أحشائي المزيد والمزيد، وهو ما جعلني أتتبع أَثَرًا. لحى الأشجار والعشب الأحرش والحصى والخشب الميّت المفتّت عبر الطرقات، في كلّ الغابة؛ كلّ ذلك جعلني أروي عطشي وأعثر على عِطْرِ المرأة.

تحدّثتْ بدورها، ثمّ جلسا على الحشيش الأحرش وتمدّدا على الكلإ الطريّ. لم تخش أبدًا من هذا الوحش الماكر، كانت الرغبة قد تَمَلَّكَتْهَا، فكانت تلهث ببطء. كان ذلك في أوت، شهر الوفرة. أزيز الصراصير يملأ سمعها، قمم الأشجار تطقطق تحت احتدام الضحى وأيدي الغول، فجأة لم تظلّ بشرا وجدتْ نفسَها في السبل التي يهوَى كلُّ طفل أن يتيهَ فيها. جميع السواقي التي جفّتْ انبجستْ من جديد في عروقها وحملتها بعيدا عن نفسها. أصبح الغول سيّدًا لها وها هو خَوَرُهَا يعصف بها كامرأة سعيدة استهلكها ضعفُها، أنّتْ تحت وطأة اللذّة، وأصبحت تتبع خطوات الغول حتى غروب الشمس. اختفى لمّا أقبل الليل وعندما خرج الصيّاد في الغد، التحقت بعشيقها، كانت في كلّ مرّة تتزيّن بزينة جديدة. أصبحت منذ ذلك اليوم، تميل إلى العزلة، التي كانت لفترة طويلة تخشاها، كلّ شيء، فيما عدا الغول، أصبح يبدو لها غير ذي قيمة. ها هي سعادتها كامرأة قد صيّرتها قاسية. لكي تغرق في تحقيق نزوتها تمنّت الموت لأخيها، ثمّ حرّضت عليه، فوعدها الغول بتحقيق ذلك. لم يبق هناك شيء يشدّها للطفولة، للأشياء البشريّة. اتفقا فيما بينهما على أن تستبقي، أثناء غياب أخيها، أصدقاءه: حيوانات الغابة. لمّا يكون الصياد لوحده بدون رفقته سوف يكون ضحيّة سهلة للغول.

ذات مساء، ادّعت الخدّاعة أمام أخيها بأنها مُصابة بمرض لا دواء له. كانت تئنّ بصوت واهن وكأنّها تَحْتَضِر. في الصباح تظاهرت بأنها تحسّنت لكنّها شكت من العزلة، وافتكت من الصياد وعدا بأن يترك لها إخوته الثلاثة من ذوي الشعر ليظلوا بمعيّتها: أسد وذئب وخنزير. وقالت له:

-أمّا أنت، فاذهب إلى قلب الغابة لتأتيني بالعشبة التي تشفي من جميع الأمراض. إنها العشبة التي أحتاجُها.

رحل الرجل، أغلقت أختُه جميع الأبواب وأحكمت أقفالَها، ولأوّل مرّة في حياتها شعرت الحيوانات بأنها مسجونة، بعيدا عن أخيها. العشبة السحرية لا تنبت في الطريق الذي يقطعه! ظلّ سائرا لمدّة طويلة، عَبَرَ مستنقعات، تاه في الشِعَاب. كانت فجوات مجهولة تنفتح أمامه: بدا لعينيه أنّ الغابة ضاعفت من عدد أشجارها، مما ينبت في أرجائها، هشيم النباتات، حشرات لم ير مثلها في حياته، جميعها لا تُبْرِئ مرض أخته. استبدّ به قلق منبعث من حُبِّ نَضِرٍ، باحثا عن عشبة نادرة. كم كان بإمكان الرجل أن يستمتع بهذه الغابة، القريبة من نفسه، لكنه يشعر اليوم اتجاهها بالاضطراب، ولأنّها كانت موطن الطفولة، لمّا كان قلبه يتفجّر نضارة، تنبعث الفرحة من كل أرجائها، وتُطِلُّ السماء من خلال الأغصان. حدث نفسه مصمّا

على أن لا يصرف كلّ وقته في الصيد؛ فليصد فقط من حين لآخر ما يحتاجه للعيش، قائلا: « لاشكّ أن أرواح جميع الحيوانات ودمها الذي سال هو ما أحزن أختي وسَيُنَكِّدُ عليّ حياتي غَدًا... ».

وما أن انتهى من مناجاة نفسه حتى ظهر أمامه وحش شبيه بالإنسان، واعترض طريقه.

– من أنت؟ إنس أم جنّ؟ من هذا العالم أو من العالم الآخر؟

– لست من العالم الآخر، لكنني موجود في الحاضر؛ لست إنسا ولا جنّا! يدعونني الغول، ولد الغول، وسوف آكلك!

لم يكن الصياد حاملا للسلاح المناسب تقبض يده الخاوية على ظلّ مقبض وأصابعه ترتعش ماسكة بوتر قوس غير موجود، يؤلمه كتفه لم يعد قادرا على تعمير الْكِنَانَة. لم يكن إلى جانب الصياد، ككلّ يوم، الرفقة الوفيّة. كان الغول يضحك من حركاته، قائلاً له:

– هيا ! استعدّ للموت. لنتواجه لوحدنا.

قال الصياد:

– يا غول ولد الغول، أنا تحت رحمتك. لكن باسم من خلقك، اسمح لي أن أنادي ثلاث مرات من أعلى هذه الشجرة، لأتمكن من توديع ثلاثة أصدقاء لي.

قَبِلَ الوحش، لأنّه كان يعلم بغطرسة الأخت وبالأقفال والأبواب الغليظة، إضافة إلى بعد المسافة. قام حينئذ الصياد بالتسلق من غصن إلى آخر إلى أن بلغ أعلى شجرة الفلّين العظيمة وبدت قمم الغابة ممتدّة عند أقدامه كحقل مستو، كمرج بدون حدود، تصلح للسباق. تصوّر فجأة الكوخ أخته المحتضرة وحيوانات الغابة، إخوته، ثمّ إنه نادى. تردّد صدى الصيحة في جنبات الغابة: قطع الآفاق ليرنّ حوالي الكوخ كسهم مسحور. سمعه الأسد، فقد تردّد اسمُه، تعرّف على صوت الرجل وزأر بغضب مكبوت، وكان الذئب قد شرع في تشمّم الباب، أمّا الخنزير فَنَخَرَ بصوت خافت. طلبوا من الأخت أن تفتح لهم، لكنها سعت إلى تهدئتهم. قالت لهم:

– لاشيء، لقد توهمتم سماع صوت أخي، لكن ليس هناك من نَادَى. لعلّها الريح تَعْوِي.. إنّه عصفور جريح...

– افتحي يا أختنا !افتحي الباب.

– إنه نداء الفراق الذي يَصَّعَّدُ من قلوبكم...

– افتحي... افتحي- لنا...

لكنها ادّعت إصابتها بألم مفاجئ، ولَوَتْ ذراعيها، حلّت شعرها وشرعت تئنّ، بينما كانت الحيوانات تدور حول نفسها. حينئذ قال الذئب للخنزير:

– أكسر الباب لكي نخرج.

هجم الخنزير على الباب مُنَكَّسَ الرأس، ولكن الباب الغليظ، ما أن ضربه حتى أصدر صريرا. ضربه مرّة أخرى، مندفعا نحوه، غير أنه ظلّ مثل الصخرة. للمرّة الثالثة أعاد الحيوان الكرّة، وعند النداء

الأخير الصادر من الصياد، وقد ذكر فيه اسم الخنزير، انكسر الباب إِرَبًا. اندفعت حيوانات الغابة الثلاثة حينما كان النداء يتردّد في أرجاء الغابة، ممتدّا مثل أنفاس مُحْتَضِرٍ. مرّت على جسد الغابة، وكان قفزها لا يكاد يلمس الضباب، شجر الْخَلَنْج، الأدغال وحتّى الْجَنْبَات. قطعت الطرقات المتشابكة، تجاوز المرج الأخضر، تعدو متتابعة، تجري إلى الأمام وكأنها تطارد الأرانب. فالغضب الذي يحتدم في داخلها كحيوانات غابة أوصلها سريعا إلى شجرة الفلّين العظيمة. وكان الصياد متنقّلا من غصن إلى آخر، نازلا نحو حتفه. كان الغول في أسفل الشجرة، ينتظر ضحيّته. وكانت التردّدات الأخيرة لصدى الصوت البشري الآتية من بعيد تَخْفُتُ شيئا فشيئا. لمست قدما الصياد الأرض؛ ثم تقدم ببطء نحو الوحش. لكن ما الذي حدث؟ سُمِعَتْ جَلَبَة ملأت الغابة، جعلت الأغصان تنحني. هل ستنفتح الأرض؟ كان الرجل في متناول الغول، لقمة سائغة يسدّ بها جوعه، في متناول يديه الطويلتين. وبسرعة البرق: حدث الهجوم المفاجئ، فتسرّبت إلى هذا الموقع المعتّم حزمةٌ من الضوء، وبرز الثلاثي الْمُغَطَّى بالشعر الكثيف، تنعكس الأشعّة على الجلد، قافزا في اتجاه جذع شجرة الفلّين. قالوا بأنفاس متقطّعة:

– ها نحن هنا. ها نحن هنا. ها نحن هنا.

– إخوتي ماذا تنتظرون؟

حينئذ، أُنْشِبَتْ الأضافر، والمخالب، والأنياب في جسد الوحش، فتم دوسه ورفسه، وتفجّرت الدماء من كلّ جهة، وطقطقت العظام. ولم يبق على الكلإ سوى لباس الغول مرتسمة وفق هيئته قبل وقت قصير، الأذرع متباعدة، وطيّات الدّثار والشاش: مرمية على الحشائش وعلى الحصى. ظهر الوحش مقطعا إربا إربا؛ توزعت أطرافه وأحشاؤه على الأرض، وبدأت الكواسر تقع على الأغصان العالية للأشجار مترصّدة، وكذلك الغربان.

ثمّ إن الصياد عاد بمعيّة إخوته الثلاثة، التي سارعت إلى جانبه، فرحة بسلامته. لكنّه كان مغتمّا فهو رغم شعوره بالأخوّة وبالامتنان اتجاه حيوانات الغابة الثلاثة سألهم:

– لماذا لم تقبلوا عند ندائي الأول؟

– أغلقت علينا أختك: لقد كسرنا الباب.

– أَعْذُرُهَا فقد كانت تشكو الوحدة، لم ترد أن تنفصل عنكم، ولم تكن تقدّر الخطر الذي كان يتهدّدني.

لمّا رأت عودة الأصدقاء الأربعة، لم يراود الشكّ الأخت في أن الغول، عشيقها، قد لقي حتفه. استطاعت حينذاك أن تخفي ألمها، أن تتظاهر بالابتهاج، أن تبدي استغرابها من وجود وحش في الغابة.

– أريد أن تدلّوني على بقايا هذا الغول الذي كان سيحرمني من أخي حبيبي.

أخذتها حيوانات الغابة عند جذع شجرة الفلّين العظيمة، كانت الْخَدَّاعَة، وهي تمسك بدموعها، وأسنانها تصطكّ ببعضها، تبحث بدون جدوى عن صورة المعشوق. وقد انبعث في نفسها صوت عميق يحرّض على الانتقام. كانت تستدير حواليها، ثمّ إنها التقطت خلف إحدى الأشجار، في غفلة من حيوانات

الغابة الثلاثة، سبع شظايا رقيقة مثل الشعرات. لأنّ عظام الغول كانت مسمومة، وقد حملتها المرأة معها. عند عودتها إلى الكوخ، كانت تنتظر الوحي من شيطانها. إن طبيعتها كامرأة صيّرها أكثر شراسة بفعل عطشها للحبّ، وقد جعلها موت الوحش تخطّط لجريمة نكراء. أرادتها أن تكون أكثر ضراوة.

ما أن حلّ المساء، حتى شرعت في تهيئة فراش أخيها، رشقت بعناية على وجه المخدّة ثلاثة عظام صغيرة، ثمّ على المرقد، في مستوى الجذع، في مكان الرجلين، غرست البقيّة. كانت العظام دقيقة دقّة الشعر، مستقيمة مثل إبر، ولمّا كان الصياد مُجْهَدًا من العياء، ألقى بنفسه على سريره، مدّ رجليه إلى الأقصى، ملأ صدره بالهواء؛ لمّا كان الأخ السليم الطويّة ينتظر النوم جاءه الموت. أصابت سبع وخزات لحمه الطريّ أوالناتئ؛ في القفا، في تجويف الرقبة، في الساعد الأيمن، في المرفق الأيسر، في الورك، على الجنب الذي يرتكز عليه عند القيام، وفي أقصى الأسفل عند ثنية الفخذ وفي العُرْقُوبِ والإصبع الكبيرة للرِّجْل. كان الرجل، لسبع مرّات، يغلق فاه ليئنّ، ويرفع سبّابته للتشهّد.

قامت الأخت في الصباح الباكر لتبدي سرورها بموته. قالت:

-تعالوا جميعا، خذوا هذه الجثة. إنه أخي وأخوكم، لكنه أخوكم أكثر منّي...

اشتدّ غمّ حيوانات الغابة الثلاثة، وازدادت ظهورُها انحناءً، صدورُها تئنّ، مثلما كانت من قبل، لمّا بدت أجسادُها متضائلة أمام جثث أمّهاتها، حملت الصياد بعيدا عن الكوخ. هاهي تضعه فوق أكمة مُطَحْلَبَة لكي ترفعه. ثمّ إنها حفرت القبر وأنزلت أخاها في الحفرة ووارته بالتراب الناعم وبسيقان العشب. عادت حيوانات الغابة الثلاثة إلى البيت، وكلّ منها له طريقته في التأسّي؛ فسقطت دموع الأسد، وسالت دموع الخنزير، وجرت دموع الذئب. وحدها الْخَدَّاعَة كانت تنظر إلى هذه الدموع بعيون منفتحة لامرأة يدت وكأنها في عرس. كانت الحيوانات تأتي كلّ يوم لتتشمّم ما بقي من أخيهم: أسلحته، ألبسته، أثر ملمسه على الأشياء.

غير أن الأخت لم تعد تحتمل رؤية حيوانات الغابة الثلاثة التي تذكّرها محبّتُها الوفيّة وألمُها بخيانتها لأخيها. وذات يوم بصوت حادّ ونظرة متغطرسة قالت لهم:

– لماذا تستمرّون في إفساد جوّ هذا الكوخ؟ لقد مات أخوكم، لست في حاجة إلى رفقتكم...

أجابتها الحيوانات الثلاثة قبل أن تنسحب:

– لو لم تكوني أخته، كنا قد قتلناك بسبب هذا الكلام.

ها هي الحيوانات كاليتامى وقد أضناها الغمّ تحمل ألمَها إلى أرجاء الغابة. كانت تنام على الأكمة وتقضي وقتا طويلا في البكاء، صدورها تئنّ. ذات يوم وهي هكذا حوالي القبر، سمعت صوتا ينبعث من أعماق الأرض. كان الذئب هو من سمعه أولاً. استرق السمع وقال: "أسّس" لأصدقائه. ولمّا توقّفوا عن الأنين، قال لهم:

-استمعوا إنّه أنين...

اقترب الأسد، التقطت أذناه الصوت الأصمّ الصاعد من الأرض. استمرّ في الإنصات وسمع بتؤدّة شكوى بشريّة، إنها نداء ضعيف صادر عن الصياد، إنه النداء المختنق المنبعث من أخيهم. لم يكن بمقدور الخنزير أن ينتظر أكثر؛ فشرع يحرث الأرض الْمُطَحْلَبَة بِفَنْطِيسَتِهِ. رمى سيقان الشجر والتراب الناعم، والتي تحولت إلى غبار. ثمّ إنّه فتح القبر، بينما كان الذئب يستخرج الجسد بيده الناعمة، سحبه الأسد. أرقدوه على الأرض المطحلبة؛ نظروا إلى عينيه المنغلقتين، في يديه المتصلّبتين. كان يئنّ باستمرار. حينئذ قال الذئب:

-لنقم بتسخينه..

وحمله الثلاثة بين سواعدهم، ليبثّوا فيه شيئا من حرارتهم عن طريق احتضانه، لكنّه ظلّ يئنّ. قام حينئذ الذئب بنزع دثاره وبدأ يتلمّسه بيده ويَرْبُتُ على اللحم العاري، كان يمسح بيده بِتَؤُدَّةٍ على جسد الأخ النائم. وهاهي يدُه الرفيقة تتوقّف فجأة. وخزه شيء حادّ في الإصبع. انحنى فرأى الشوكة فجذبها وإذا بها عظم أدقّ من شعرة. تنفس الرجل طويلا. نزلت قدم الذئب إلى أسفل وصعدت مرة أخرى، فكانت أصابعه اللطيفة تبعث الراحة في الجسد المشرف على الموت. فعل ذلك مرّة واثنين وثلاثا: تم استخراج عظم ملطّخ بالدم من القفا، من الساعد، من الرقبة. مرة واثنين وثلاثا: شعرة وردية اللون مخيفة تم استخراجها من الورك، من اليد، من وسط ثنية الفخذ. عند اقتلاع الشوكة السابعة فتح الميّت عينيه. رأى قبل كل شيء إخوته، ثم الأشجار، وأخيرا جسده، الذي بعثت فيه الشمس شيئا من الدفء. حملته حيوانات الغابة على أكتافها وقصدت الكوخ.

ما أن رأتهم الأخت من بعيد حتّى صاحت:

-ماذا تفعلون؛ حملتم إليّ الجثّة؟ لتعودوا من حيث جئتم.. عودوا !

تركوها تتكلم وتابعوا طريقهم. حينئذ شاهدت المرأة أخاها ليس ميتا مثل الجثث، لكنه حيّ، الرأس مرفوعة، العيون تلمع. قالت حينئذ، وهي تُذرف دموع التماسيح:

-أخي! أخي يحيا في هذا العالم. شكرا لله.. ألف ألف شكر.

كانت قد تقدّمت نحوه بأحضان مفتوحة، مبدية البهجة. غير أن الآخرين صمتوا؛ بدت القساوة على ملامح الأخ، ولم تبق هناك مشاعر أخوة. قال لحيوانات الغابة:

-اذهبوا إلى الغابة وآتوا بأغصان تنزّ صمغًا وأعشابا كثيرة وبالعسالج...

هاهي الْخَدَّاعَة أمام أخيها الآن؛ كانت تترجّاه وزال ادعاء الفرحة مثل قناع، وظهرت على وجهها تجاعيد قاسية، حوّلت عينيها نحوه. كانت تصيح، ليس في داخلها بل كان الخوف ينبعث من فيها ويجعل خطواتها تضطرب. كانت تريد الهروب، حينئذ كانت الأرض تشدّها. لمّا أُعيدت إلى الكوخ كان كلّ شيء جاهزا. كلما سالت قطرة من الصمغ تلتهب النار وتخترق الحطب. تمّ سحب الباب، وتُرِكَتْ الْخَدَّاعَة تحترق بألسنة النار، على الحطب الذي كان يطقطق.

هل كانت تصيح؟ لا أحد يعلم. ثمّ إنّه لاجدوى من الصياح الموجه نحو الخارج إذا لم نتمكن منه من الداخل؟ كانت الغابة نفسها متواطئة في موتها، وليس هناك من ينقذ المكر الشرس. إنه مصيرها.

أما الصياد فقد قال لإخوته، الأسد والذئب والخنزير؛

-هيا نعيد اكتشاف الغابة من جديد.

والتحقوا بالغابة الأمّ، بدون أسلحة، في هذه المرة، ما دامت صداقة البشر هي قوّتهم التي تَحْظى بثقة أكثر.

الإحالات

*حكاية شعبية جزائريّة، نشرتها مُتَرجمة إلى اللغة الفرنسية، في الخمسينيات من القرن الماضي دورية "سيمون": Simoun : Aspets de la Littérature populaire en Algerie, 6e année, Edition Baconnier, Alger.

ملاحظة: نصّ الترجمة إلى الفرنسية، منشور دون إشارة إلى اسم الجامع أو المترجم، كما لم تُذكَر اللغة التي تُرجمت عنها إن كانت لهجة عربية دارجة أم لهجة أمازيغيّة. وهي اللهجات المستعملة في الجزائر والحاملة للتراث السردي.